# 2 – مقال مراجعة موضوع: معاملة الحاكم بأمر الله الفاطمي لأهل الذمة في مصر

(386. 411هـ/ 996 . 1021م)

Al-Hakim's treatment of the Fatimid people of the dhimmis in Egypt

(386-411 AH / 996-1021 AD)

**بقلم م. د. نضال غالي يوسف**

المديرية العامة لتربية محافظة النجف الأشرف

**PHD. Nidal Ghali Youssef**

Directorate General of Education Najaf Governorate

alshafeayanidhal@gmail.com

**الملخص :**

الذميون هم سكان مصر من اليهود والنصارى الذين بقوا على دينهم مع ظهور الإسلام وعاشوا بأمان مع المسلمين، ولكن قيل في زمن الحاكم الفاطمي إن معاملتهم تغيرت، حيث ألزمهم بارتداء الملابس، بزاتهم الرسمية، ويحملون الصليب على أعناقهم، ويقتلون الفاسدين بينهم من موظفي الدولة.

**الكلمات المفتاحية** : اهل الذمة، الحاكم بأمر الله، القاهرة، عيسى بن نسطورس النصراني، ابو ركوة.

**Summry:**

The dhimmis are the inhabitants of Egypt of Jews and Christians who remained on their religion with the advent of Islam and lived safely with the Muslims, but it was said during the time of the Fatimid ruler that their treatment changed, as he obliged them to wear their own uniforms, carry the cross on their necks, and kill the corrupt among them among the state employees.

**Keywords:** Ahl al-Dhimma, al-Hakim bi-Amr Allah, Cairo, Issa bin Nestorius al-Nasrani, Abu Rakwah.

**مقدمة:**

أهل الذمة لغة : من الذماء وتعني ممدود بقية النفس او الروح في المذبوح.

وأهل الذمة هم اهل العقد والأمان الذين دفعوا الجزية فأمنوا على دمائهم واموالهم .

اطلق عليهم بأهل الذمة لان الانسان يُذم على اضاعته منه وهذه طريقة مستعملة عند العرب، وظلوا على هذا الحال يمارسون اعمالهم حتى مجيء الفاطميين الى مصر سنة (358هـ/969م)، فأصبحوا في حالة من الهلع والخوف على انفسهم من اراقة دمائهم، ولكن عندما قرأ عليهم جوهر الصقلي (ت 382هـ/992م)، قائد الجيوش الفاطمية كتاب امان الخليفة المعز الفاطمي (362هـ . 365هـ/972. 975م)، الذي جاء فيه ابقاؤهم على ما كانوا عليه عندها شعروا بالاطمئنان وعادوا الى ممارسة حياتهم الطبيعية اليومية، كما كانوا في السابق حيث كان اغلبهم يعملون في الوظائف الادارية المختلفة للدولة.

وزيادة على هذا فقد تعاطف معهم الخلفاء الفاطميون ونال بعضٍ منهم الحظوة عندهم وذلك حينما قلدوهم مناصب عليا في الدولة الفاطمية الجديدة ولاسيما الخليفة العزيز الفاطمي(365.386هـ/975. 996م) ، الذي تزوج بامرأة نصرانية فجعل أخويها بطريركين ملكيين وهم أريستس بطريركاً على بيت المقدس حيث امضى فيها مدة 20

سنة ومات هناك، والثاني ارسانيوس مطراناً على القاهرة ومصر معاً ، وجعل عيسى بن نسطورس النصراني وزيراً له للنظر في الامور ولقبه بـ ( سيدنا الأجل )، وولى منشا اليهودي ولاية الشام .

اما احوالهم في عهد ولده الحاكم بأمر الله الفاطمي (386. 411هـ/996. 1021م)، فقد رويت بإجماع المؤرخين الذين دونوا سيرته وقالوا عنها انها من اعجب السير ابتداء بالمؤرخ النصراني يحيى بن سعيد الانطاكي(ت 458هـ) الذي كان معاصراً لعهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ودون احداث عصره معتمداً على مشاهداته.

فقد ذكروا ان معاملته ليس لأهل الذمة فحسب انما لعامة الناس كانت متضادة او متناقضة، وذلك لأنه كان يخترع في كل وقت احكاماً يحمل الناس على العمل بها قسراً فمن جملة ما ذكروه عن احوال اهل الذمة وتعامل الخليفة معهم ففي سنة 395هـ، أنه قرئ سجل باسم الحاكم في الجوامع يأمر به اليهود والنصارى بشد الزنار على اوسطهم ولبس الغيار وشعارهم بالسواد، وامر النخاسين بعدم بيع العبيد والإماء من المسلمين لأهل الذمة.

وفي سنة 397هـ، منع النصارى من تزيين كنائسهم في ليلة عيد الشعانين وهو من مواسم النصارى بمصر. وفي سنة 402هـ، امر الحاكم مرة اخرى بمنع النصارى من الاجتماع في عيد الصليب وان يظهروا بمظهر الادب والاحترام حينما يذهبون الى الكنائس.

وفي سنة 403هـ، امر النصارى الا الحبابرة بلبس العمائم السود والطيالسة السود وان يعلق النصارى في اعناقهم صلبان من خشب طولها ذراعاً وزنه خمسة ارطال، وان يحمل اليهود في أعناقهم قرامي وزن كل قرمة خمسة ارطال، وان يكون سروجهم من الخشب ولا تكون محلاة بل تكون بسيور سود ويركبون البغال والحمير ولا يركبوا الخيول، ومنع المكاريون من حملهم مع المسلمين ولا يركبون النيل مع نواتية مسلمين، ولا يركبون بهيمة في الاسواق، ولا يدخلوا مع المسلمين حماماً وجعل لهم حمامات خاصة بهم وان يكون مع اليهودي جرس ومع النصراني صليب، ومنع خروج النساء من بيوتهن قاطبة. وليس هذا فحسب انما جعل الحاكم الفاطمي لليهود حارة زويلة خاصة بهم يسكنون بها وامرهم ان لا يخالطوا المسلمين في حاراتهم .

وامر الحاكم بأمر الله الفاطمي ايضاً في سنوات متعددة بهدم الكنائس النصرانية في مختلف حارات مدينة القاهرة، والاهم من ذلك انه امر بهدم كنيسة القمامة او القيامة في سنة 408هـ، ولكن الاعجب انه امر بإعادة بنائها ورد مقتنياتها اليها.

القرارات الصادرة من الحاكم الفاطمي بحق اهل الذمة جعلت اغلب المؤرخون الذين كتبوا سيرته يعللون سبب ذلك هو اصابته بسوء المزاج المرضي في دماغه الذي احدث له ضرباً من ضروب المالنخوليا وفساد الفكر منذ حداثته. ويعني هذا انهم ألصقوا به مرض انفصام الشخصية وقالوا عنه انه مجنون لأنه يفعل اشياء لا تقع الا من المجانين الذين في عقلهم خلل، وليس هذا فحسب انما اتهموه بسفك الدماء وقتل النفس المحترمة.

ولكن الحقيقة خلاف لذلك لأن الخليفة الحاكم بأمر الله عندما كتب عنه المؤرخ بن اياس (ت 930هـ) قال: عرف عنه بإظهاره العدل بين الرعية وسار في الناس بسيرة حسنة على طريقة والده العزيز فلم يكن مجنوناً وليس لديه اية انفصام بالشخصية ولم يكن مصاباً بأي مرض وانما اقدامه على اتخاذ مثل هكذا قرارات سريعة كانت له مبرراته في اصدارها ، باعتباره الخليفة والحاكم للبلاد الذي عاش الاحداث في جوٍ مشحون بالفتن والاضطرابات وانحلال المجتمع وفساده اخلاقياً وادارياً وفضلاً عن هذا ظهور الحركات والثورات كثورة ابي ركوة سنة 396هـ، والمعتقدات كظهور الدرزي الذي ادعى ربوبية الحاكم الفاطمي سنة 408هـ، تلك العقائد التي لم تكن موجودة في المجتمع المصري مسبقاً، فمثل هكذا اوضاع كان على اي حاكم للبلاد بغض النظر عن الخليفة الحاكم الفاطمي ان يتخذ إجراءات مشددة تعمل على اصلاح المجتمع واستقامته وارجاعه على ما كان عليه في السابق، وانقاذ الدولة ومن الانهيار والسقوط .

ومن الملحظ ان والده العزيز بالله قد اتخذ إجراءات مماثلة له حينما بلغه تمادي اصحاب المناصب من اهل الذمة وازدياد جورهم واذاهم على المسلمين كافة في مصر مما ادى هذا الامر الى ان يشكوا اهل مصر للخليفة من افعالهم فقاموا بعمل دمية من القراطيس ووضعوا في يدها رقعة مكتوب فيها بالذي اعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى واذل المسلمين بك الا كشفت ظلامتي فعرف العزيز المغزى من رسالة الناس اليه، فأرسل بطلب عيسى واخذ منه ثلاثمائة دينار واخذ من منشا مالاً كثيراً وارجعه لأصحابه، حيث حاول اصلاح بعض الشيء لأن سياسته كانت قائمة على التسامح والعفو عن الاخرين وعدم التفرقة بين اهل الذمة والمسلمين .

وحذا الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي حذوه والده العزيز بالله في ادارة البلاد حيث اقر جميع موظفي الدولة من اهل الذمة على وظائفهم، ولم يحدث التغير الا لمقتضيات المصلحة العامة فمثلاً اقر عيسى بن نسطورس النصراني في وظيفته في الديوان الخاص في سنة 375هـ ولكن المغاربة رفضوه وطلبوا من الحاكم الفاطمي تعين شخص منهم يكن له منصب الوساطة بينهم وبينه، فاستجاب لطلبهم وعين ابا محمد الحسن بن عمار بدلاً عنه.

ولكن تمادي عيسى بن نسطورس النصراني بالظلم وزيادة الضرائب والمكس على الناس جعل الحاكم الفاطمي يقدم على قتله سنة 375هـ، كي يكون عبرة لغيره ولا يتجرأ اي موظف على الفساد المالي او الاداري.

وروى المؤرخ المقريزي انه قتل مدبر امور دولته الاستاذ برجوان الصقلي الذي حكم نيابة عنه وذلك بسبب تقصيره في خدمته وتشاغله بملذات الحياة وحبه للرقص والغناء وذلك في سنة 390هـ، وعين بدلاً عنه الرئيس فهد بن ابراهيم النصراني نيابة عنه.

تلك العقوبات الصارمة بحق الموظفين الجناة جعلت جميع موظفي الدولة يخافونه ويخشونه ويطلبون العفو منه مما حدا بالحاكم الفاطمي ان يكتب لهم كتب امان نسخة للمسلمين ونسخة امان اخرى للنصارى ونسخة ثالثة لليهود وذلك في سنة 395هـ.

ولم يتوقف الحاكم الفاطمي عن تعيين الموظفين النصارى في وظائف الدولة المهمة ففي سنة 394هـ، عين ابو يعقوب بن نسطاس النصراني طبيباً خاص له، وعين ابا نصر بن عبدون النصراني الكاتب ديوان الخراج وافرده فيه دون ان يجعل له شريك ، وليس هذا فحسب انما اعطاه امتيازات كثيره لم يعطيها لأحد قبله فقد لقبه (بثقة ثقات السيف والقلم) ، وذلك في سنة 400هـ.

وفي سنة 401هـ، ولى زرعة بن عيسى بن نسطورس النصراني الوساطة ولكنه مات بمرض سنة 403هـ، ولولى موته لقتله الحاكم لأنه قال عنه انه افسد دولتي وخانني ونافق عليّ.

ومن إجراءاته الاخرى مع اهل الذمة انه في سنة 397هـ، منع تزيين كنائسهم التي اعتادوا عليها وكان ذلك بسبب شدة الغلاء التي عانت منها البلاد آنذاك فطلب منهم التقتير بالمال للاستفادة منه بتلك الشدة من غلاء الاسعار.

وفي سنة 402هـ، امر بتتبع المنكرات ومنع النصارى منها عند اجتماعهم في عيد الصليب وان يذهبوا الى كنائسهم من دون تلك المنكرات.

وروى المؤرخ ابن ايبك الدواداري، في مؤلفه الدرة المضية، أنه أمر بهدم كنائس وبيع اهل الذمة، ولكن كانت له مبرراته في ذلك وهي ان هذه الكنائس كانت بجوار المساجد فأراد توسيع المساجد وابعاد الكنائس عنها.

واما كنيسة القمامة او القيامة في بيت المقدس التي امر بهدمها سنة 408هـ، فكانت مبرراته في ذلك هو اجتماع الناس فيها بعيد الفصح وهم يحملون الصلبان ويعلقون القناديل في المذبح ويتحايلون بإيصال النار اليها من خلال خلط دهن البيلسان مع الزئبق فيحدث لها ضياء يظن الذي يراه انه نار نزلت من السماء فانكر ذلك الحاكم الفاطمي عليهم وامر بهدمها وهدم جميع الكنائس في البلاد ولكن رجع في قراره خوفاً من ان يقوم النصارى بهدم مساجد المسلمين في البلاد فتوقف عن هدمها ، وامر ببناء جميع الكنائس التي هدمت ورد مقتنياتها اليها وذلك في سنة 410هـ.

اما إجراءاته التي اتخذها بشأن زي اهل الذمة الذي شدد على الالتزام به، وامر اناس بتتبعهم فهي إجراءات طبيعية لم تكن مستحدثة فقد اتخذها بحق اهل الذمة الحكام الذين سبقوه وخير مثال على ذلك هو ما ذكره المؤرخ ابن عبد الحكم في فتح مصر (ت 257هـ)، كتاب الخليفة عمر بن الخطاب (13. 23هـ)، الذي رواه عن عبد الله بن عمرو جاء فيه : **أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف عرضا** ولربما تكون إجراءاته تلك تمييزاً لهم عن غيرهم من المسلمين، وان الحاكم الفاطمي شدد على زيهم لنفس السبب، وذلك لأن في عهد الحاكم كثر الاشرار والعابثين بأمن المدينة حتى انهم وصلوا الى خطف النساء من الطرقات او لكثرة الثورات ضده فأراد تميز اهل الذمة عن المسلمين لمعرفتهم بسهولة.

## المصادر والمراجع

1. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري (ت257هـ)، فتوح مصر واخبارها ، تحقيق: محمد الحجيري، دار الفكر(بيروت . 1996).

2. ابن فارس، ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت395هـ)، معجم مقايس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر(بيروت . 1979).

3. الانطاكي، يحيى بن سعيد (ت 458هـ)، تاريخ الانطاكي المعروف بصلة تاريخ اوتيخا ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، نشر جروس برس (بيروت . 1990) .

4. ابن الصيرفي، امين الدين ابو القاسم علي بن منجب (ت 507هـ)، الاشارة الى من نال الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص ، نشر خزانة الكتب الخالدية (القدس . بلا . ت ) .

5 . ابن الاثير، ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت637هـ) ، الكامل في التاريخ، تحقيق : محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية (بيروت . 1987) .

6. ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابي بكر(ت 681هـ) ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، دار صادر (بيروت . 1994) .

7. ابن العبري، غريغوريوس الملطي (ت 685هـ)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق : الاب انطون صلحا ، دار المشرق (بيروت . 2007) .

8. ابن سعيد المغربي، ابو الحسن علي بن موسى بن محمد (ت 685هـ)، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق : حسين نصار، طبع دار الكتب (بيروت . 1970) .

9. ابن منظور، محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت 711هـ)، معجم لسان العرب، تحقيق: اليازجي واخرون دار صادر(بيروت . بلا . ت) .

10. الصفدي، الحسن بن ابي محمد (ت 717هـ)، ملوك مصر من الطوفان الى الناصر بن قلاوون المعروف بـ (نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك ، تحقيق: محمد سيد عبد الوهاب، دار الحديث (القاهرة . 2007) .

11. ابن ايبك الدواداري، ابو بكر عبد الله (ت 736هـ)، الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، نشر المعهد الالماني للأثار(القاهرة . بلا . ت ).

12. الذهبي، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز (ت 748هـ)، سير اعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة (بيروت . 1993) .

13. المقريزي. تقي الدين احمد بن علي (ت845هـ)، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، نشر لجنة احياء التراث الاسلامي، ط2 (القاهرة . 1996) .

14. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بـ (الخطط المقريزية ) ، تحقيق: محمد زينهم و مديحة شرقاوي، مكتبة مدبولي (القاهرة . 1998).

15. ابن تغري بردى ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن عبد الله (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة

في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب (القاهرة . بلا . ت ) .

16. ابن اياس، زين العابدين محمد بن احمد الحنفي (ت 930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (بلا . مـ بلا . ت ) .

17. حسن، ابراهيم حسن، الفاطميون في مصر واعمالهم السياسية والدينية، المطبعة الاميرية (القاهرة . 1932).

18. الروضان، عبد عون، موسوعة تاريخ العرب، الاهلية للنشر، ط3 (الاردن . 2009) .

19 . دعكور، عرب، تاريخ الفاطميين والزنكيين والايوبيين والمماليك وحضارتهم، دار النهضة العربية (بيروت . 2011) .